

الإسلام والتفكير الطوباوي (*)

رمضان بسطاوي محمد

أزعم أن هذا الكتاب من الكتب الهامة التي صدرت، وتتناول ظاهرة الواقع العربي بعمق، ويدير حواراً مع الاتجاهات المعاصرة في الفكر العربي، لأن يطرح سؤالاً، ولا يكتفي بالطرح التوفيقي، وإنما يبين لنا أيضاً عما تريده بعض الاتجاهات، من تصور للمستقبل في الماضي، وليس المستقبل، ويطرح إشكالية ما هو مستقبل الواقع العربي، والفكر العربي، هل هو بعث الحضارة الإسلامية في التاريخ الماضي، وهل هذا ممكناً؟ من الناحية الفلسفية والمنطقية، وهل يمكن للحضارة الإسلامية أن تجدد نفسها في صور جديدة تتفق مع آليات العصر؟... هل الإسلام ضد فاعلية الإنسان في تصور واقعه المستقبلي كما تزعم بعض الدراسات، التي ترى في الإسلام معوقاً للنهوض، للدخول في عصر التحديث، مثل دراسة د. محمد عابد الجابري، نقد العقل السياسي العربي، وهو إعادة بناء للتاريخ الاجتماعي والسياسي للإسلام، وفق مفاهيم القبيلة والغنيمة والأمة، ومثل دراسة د. حسن حنفي «من العقيدة إلى الثورة» التي تحاول إعادة بناء

(*) يوسف سلامة: الإسلام والتفكير الطوباوي، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق 1992.

مفاهيم الإسلام الخمسة: التوحيد، والعدل، واليوم الآخر، والنبوة والإمامة، من خلال تفكيك هذه المفاهيم وهدمها من الداخل... وغيرها من الدراسات، وقد أتاح مفهوم اليوتوبيا، كمفهوم سياسي واجتماعي، أن يبين لنا بموضوعية موقف هذه الاتجاهات من الواقع المعاشي، والدكتور يوسف سلامة هو أحد الباحثين في الفلسفة العربية المعاصرة، حصل على درجة الماجستير في الفلسفة عن «هوسرل»، ودرجة الدكتوراه عن اليوتوبيا بين هيجل وهربرت ماركيز، وهذا الكتاب هو تطبيق لدراسته النظرية التي لم ينشرها بعد، ويتضح هذا في الروح الهيجلية التي تغلق الكتاب، وتلقى بظلالها عليه، لا سيما أن حضور مصطلحات هيجل كان واضحاً في تصور العلاقة بين الفردي والجزئي وبكلي في علاقتهما بتطور الأمة خلال مسارها التاريخي الخاص.

وقد كشف المؤلف عن الاستعارة الايديولوجية والتحيز المنهجي في كتابات المعاصرين، حين يبين أن الفكرة الحضارية الواحدة لا تقوم عليها إلا حضارة واحدة، وأن هذه (الفكرة)، مهما بلغت أهميتها، إذا استندت إليها حضارة ما في قيامها، فإنها لا يمكن أن تشيد حضارة جديدة منطلقة من هذه الفكرة التي أصبحت - نتيجة لهذا - تنتمي إلى ماضي «روح العالم»، ومهما بلغت الجهود التي يمكن أن تبذل في سبيل إحياء هذه الفكرة، فإن إحياءها أمر متعذر تماماً، إذا قصد به هذا الإحياء هو استنباط أشكال جديدة للحياة تتجاوز الأشكال التي سبق لها أن أقيمت على هذه الفكرة.

وعلى ذلك فإن الاستمسك بفكرة سبق للإنسانية أن أقامت عليها حضارة ما ليس من شأنه إلا أن يوفر لهذه الأمة، التي تحاول الاستمسك بفكرتها، الفرصة للبقاء لفترة أطول على قيد الحياة قبل دخولها النهائي في ليل الإضمحلال الطويل. ذلك (الليل الروحي) الذي تفقد فيه كل الأحياء تمايزاتها الحية، وهذا الوجود الإضافي، لا يمكن له أن يتسم إلا بطابع دفاعي يخلو من كل إبداع، ولكنه على كل حال موفر للأمة المضمحلة ملجأ مؤقتاً، وهذا ليس مقصراً على المستوى الفلسفي أو العلمي للفكرة، وإنما هو يتجاوز ذلك إلى مناشط الحياة وميادينها بحافة وإلى الفن الأدب والعلم والتاريخ أيضاً.

وخلاصة الكتاب تبين أن الإسلام من حيث هو ذات أو مفهوم ينطوي على روح طوباوي متعدد الأبعاد والمستويات، فالقسم الأول من الكتاب اهتم بصورة أساسية بالكشف عن طبيعة الإسلام أو ماهيته من خلال منظور هيجلي، فبين انعكاس هذه الماهية في نظام معياري محدد، بينما أبان القسم الثاني أن هذه الماهية الكلية تنطوي على اليوتوبيات بوصفها أحد أضداد هذا الكلي، وليس ضده الوحيد، فتم ذلك

الكشف عن بعض التوجهات المثالية داخل الروح الإسلامي ذاته، وفي القسم الثالث يطرح المؤلف التحقيقات العينية لليوتوبيا، أي ينتقل من الكلي إلى الفردي، أي البحث عن الصور الفعلية والواقعية التي أنتجها التفاعل الجدلي بين الكلي والجزئي، أو بين الإسلام واليوتوبيا من خلال نشاط الفردي، أي الإنسان الذي هو البؤرة الحية التي يلتقي فيها الكلي بالجزئي من خلال مساعي الفردي لإنتاج ذاته إنتاجاً فردياً واجتماعياً على حد سواء. ويرى المؤلف أن البعد الطوباوي للإسلام يفض نفسه في الجزئي والفردي، ويبلغ تمامه، بل انحلاله، عند تحول الفلسفة إلى تصوف. أو عندما يعود الفردي إلى ذاته باتحاده الكلي، وباللاتمايز والإيجاب المطلق الذي هو نقطة البداية للكلي، مما يدل على أن الكلي قد عاد إلى ذاته. واتحد بها من جديد. وهذه العودة للكلي إلى ذاته واتحاده بها هي نقطة نهاية بقدر ما هي نقطة بداية. بمعنى أن الخاتمة التي انتهت إليها الروح الطوباوي الإسلامي يمكن أن تكون بداية بقدر ما هي نهاية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل جاءت الحضارة الإسلامية، وبلغت تمامها وذهبت إلى غير رجعة شأن الكثير من الحضارات السابقة، أم أنها لم تمت ويمكن لها أن تجدد نفسها وتستمر على صلة حية بروح العالم تمكنها من الارتقاء بذاتها إلى النقطة التي بلغها هذا الروح في تطوره في اللحظة الراهنة؟ وإجابة المؤلف، تشبه إجابة هيجل عن نهاية التاريخ في عصره، لأنه يرى أن تحليله السابق لماهية الإسلام بوصفه (فكرة) بالمفهوم الهيجلي من جهة، وتحليله لماهية التفكير الطوباوي الإسلامي من جهة أخرى، تبين أن حركة هذه الحضارة - يقصد الإسلامية - قد اكتملت دورتها، أي أن مفهومها قد عبّر عن كل إمكاناته الذاتية، ولا يمكن استئناف نهضتها من جديد، إلا إذا سلمنا بأن مفهوم الحضارة الإسلامية ينطوي على عناصر أو قيم لم يتم استفادها في دروة حياتها الأولى، وإلا كان الإنبعث مجرد تكرار لا قيمة له. فتلك القيم - يقصد المؤلف القيم الإسلامية - كانت ذات دلالة لأنها كانت تعبر عن روح العالم في مرحلة تاريخية ما، ولكنها الآن جثة هامدة خلفها روح العالم ورائه، وهذا الروح يهزأ بكل بتكرار لأن الإبداع ماهيته.

لكن كيف يستطيع المرء البرهنة على أن هناك بقية في مفهوم هذه الحضارة أو تلك يمكن الاستناد إليها في احياء هذه الحضارة أو تجديدها؟، لكل حضارة مفهوم، والوحي الإسلامي هو مصدر المفاهيم في الحضارة الإسلامية، بينما نظريات التفسير وعلوم الحديث هي الاشكال المتعاقبة والمتنوعة التي بعثت الحياة في هذا المفهوم، وبالتالي فإن نظرية التفسير أو التأويل المعاصرة هي التي يمكن أن تبعث الحضارة الإسلامية من جديد،

لكن هل يمكن للنظرية المعاصرة أن تكون مرتبطة بالوحي الإسلامي، أم ترى الوحي في ضوء شروط الحقبة المعاصرة التي تمحيها؟ وبالتالي تخضع لشروط حضارية معاصرة، ترفض الذات الإسلامية الانضواء تحت لواءها. هذه هي الإشكالية التي لم يصل الكتاب فيها إلى حل، وهو يرى الفكرة الإسلامية لا يمكن أن تقوم عليها حضارة معاصرة، لأن الانضواء تحت الحضارة المعاصرة التي ينتجها الغرب تتضمن سلباً للفكرة الإسلامية، والفكرة الإسلامية لا يمكن أن تنتج حضارتين مختلفتين في المضمون ومتباعتين في الزمن، فالعودة إلى التاريخ ممتنع حتى الآن، وتقليدها هو أنني هو اضمحلال للروح الحضارية. والمؤلف يبين أن الإجابة عن هذا السؤال، أي اختيار طريق ثالث بين القديم والمعاصر هي إجابة سياسية لم ترتق بعد إلى مستوى التفكير الفلسفي، وهذا يجسد تخلف الفكر العربي عن إثارة القضايا الحقيقية، وينصرف عنها لأسئلة عقيمة، وذلك لأن التنظير الفلسفي لم يحرز من التقدم في الحقبة الراهنة لدى الشعوب الإسلامية ولدى شعوب العالم الثالث على حد سواء، ما يكفي لرسم مشروع طوباوي أو حضاري متكامل لمستقبل هذه الشعوب. وكل ما يمكن للمرء أن يأمل فيه اليوم هو أن تستطيع هذه الشعوب - على المدى البعيد - أن تبدع مفهوماً عاماً أو ذاتاً حضارية مشتركة تضعها في مقابل الآخر - وهو غربي مهما كانت أيديولوجيته - فلعلها بذلك تنتج لنفسها ذاتاً حضارية من ناحية، وتخفف من قلق الغرب من سقوطه، ومن اضمحلال حضارته، وثبتت له أن الحضارة الغربية المعاصرة ليست هي كلمة الروح الأخيرة، وبسقوطها لن يسقط الروح، لأن جوهر الروح إبداع، وسيكون لديه دوماً الجديد ويحققه.

والكتاب يتتبع التفكير الطوباوي الإسلامي على مدار التاريخ حتى يصل إلى التصوف، وهو آخر مراحل التفكير الطوباوي، الذي تخلق فيه الفرد عن جزئيته ليتحد بالكلية، وبذلك تحولت التصورات الطوباوية الإسلامية من كونها تصورات إنسانية أو شبه إنسانية، لكي تصبح رؤى إلهية قائمة في صميم الحق الذي أصبح الكون والإنسان مجرد مرآة تنعكس فيهما صفاته، بعد أن تم استدماجهما فيه، فاكتمل الإنسان بذلك أو مات. ولذلك فإن تطور الحضارة الإسلامية هو رهين باستيعاب تجربة ابن عربي (الصوفي)، بحيث يمكن تجاوزها، إلى أفق جديد، فاكتمال الدورة بالرؤية الجمالية، الخلاقة لدى ابن عربي قد جعلت الحق متحداً بالجمال، وعدم التمايز بينهما، ولا بد من مفهوم لسلب هذه الفكرة، لإيجاد مبرر لقيام حضارة جديدة.

هذه هي الأفكار الأساسية للكتاب، الذي يستخدم مصطلحات هيكل بنفس

دلالتها، وهو بذلك يمارس الاغتراب على مستويين:

- 1 - اغتراب المنهج الهيجلي عن الموضوع المدروسي، وهو الحضارة الإسلامية.
- 2 - أن النتائج التي يتوصل إليها يوسف سلامة هي متغمغة في المنهج وليس الموضوع، وبالتالي فإن المؤلف ألزم نفسه منذ البداية بمجموعة من المصادر تتأسس على منهجه، دون أن يطرحها الموضوع المدروسي.. فالإسلام كفكرة يولي أهمية بالغة للفرد في إبداع حياته، وتتأسس اليوتوبيا فيه على الأخلاق والاستمولوجيا، وبالتالي فالبعد الإنساني حاضر دوماً، بل إن تحقيق اليوتوبيا في الإسلام في الآخرة، اليوم الآخر، مرتبطة بشروط مكيدة المرء لتحقيق اليوتوبيا بمستوياتها المتعددة في العالم الدنيوي.

والطريف في الأمر أن الدكتور يوسف سلامة قد ألقى محاضرة في نقابة المهندسين بدمشق بالإشتراك مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عن الإستعارة الأيديولوجية والتحيز المنهجي، ووقع في كتابه في كل ما حذر الباحثين من الوقوع فيه، فلم يستنبط المنهج من الموضوع المدروس، وإنما أقحمه عليه، وهذا ما يعيه الدكتور يوسف سلامة، لكن يبدو أن التناقض بين الوعي والسلوك الكتابي في التطبيق هي سمة متكررة في الفكر الإسلامي طوال تاريخه، فنجدها لدى ابن سينا في منطق المستشرقين، حين يقدم منهجاً أصيلاً، لكنه لا يطبقه، وكذلك فعله ابن خلدون، فجاءت مقدمته مختلفة عن كتابه في التاريخ، وهو ما فعله حسن حنفي في كتابه التراث والتجديد وهو يبدو كمقدمة ابن خلدون، وجاءت أعماله التالية تتحدث عن موضوعات أخرى غير تلك التي تحدث عنها في المقدمة النظرية.

لكن ما معنى الحكم القيمي، بانتهاء الحضارة الإسلامية، واستحالة قيام حضارة جديدة، أليست هذه فوكوياما أخرى، لكن من منظور مختلف.... وإذا كانت هذه هي النهاية، أليست كل المظاهر السلبية بالمعنى الفلسفي هي حياتنا المعاصرة هي أرهاسات ملامح جديدة بمفاهيم مختلفة، تقوم على التعدد، بدلاً من ثقافة الوحدة التي اعتمد عليها المؤلف في تحليل أفكاره، إن لكل فكر مدينته الفاضلة، بشكل أو بآخر، والدين الإسلامي بدوره له فردوسه الذي يدافع عنه. ولكن اليوتوبيا الإسلامية تخضع مثل غيرها للتأويل والاجتهاد. فالفكر الدين السلمي يلتقي بالتذكير باليوم الآخر، حيث يكون للمؤمن جنة جزاء له على صبره وإيمانه وتعويضاً له عن الحرمان الذي ذاقه في العالم الدنيوي. وهناك الفكر الديني الذي يرى اليوتوبيا في زمن مضى، في زمن الإيمان الكامل المفترض، حيث شهدت الحقيقة أعلى مراتبها قبل أن تنحدر بشكل متدرج إلى زمن الرذيلة والفساد. وإذا كان الفكر الأول يحذف التاريخ والمسافة القائمة بين الحاضر

والمستقبل، فإن الفكر الثاني يقوم بتحويل الواقع إلى أسطورة، وإلى جانب هذين المفهومين نجد مفهوماً ثالثاً يجعل الإيمان عملاً، ويستنهض الإنسان من أجل تدخل قصدي في الواقع يرفع عنه الغبن والظلم، ويفرض وقائع جديدة تحقق العدل والفلاح والسعادة ويجعل من لحظة التاريخ الحاضرة منطلقاً للتعامل مع الأزمنة كلها. وحقيقة الأمر إن اليوتوبيا مهما كان مصدرها، لا تكون، إلا إذا اعتبرت الإنسان إمكانية فاعلة ومبدعة، واعتبرت أيضاً المستقبل هو الفضاء الرحب الذي يسمح بتحرر الإمكانية الإنسانية، لأن كل يوتوبيا تغلق باب المستقبل تكون زائفة، وتقيد الإنسان بدلاً من أن تحرره.

إن كتاب يوسف سلامة يعالج اليوتوبيا في معناها الفلسفي والنظري ويقارب دلالتها في الاجتهاد الديني الإسلامي، وهو أشبه برؤية أشبنجلر للغرب في كتابه انهيار الغرب، لكن الفرق أن أشبنجلر يستخدم المنهج البيولوجي في نهاية الغرب نتيجة للشيخوخة، بينما يوسف سلامة، يرى نهاية الحضارة الإسلامية وفقاً للمنهج الهيجلي.